قواعد التفسير الموضوعي..

أهميتها وتطبيقاتها

ليث العتابي*

□ مقدمة

بما أن العلوم قد كانت لها قواعدها الخاصة، كان من اللازم أن تُوضع لـ(علم التفسير) قواعد خاصة به. علمًا أنه قد اختلطت قواعد الفقه وما يتفرَّع منها بقواعد التفسير، واختلطت القواعد السلوكية بالقواعد التفسيرية، بل اختلطت كيفية بناء القاعدة التفسيرية البناء الصحيح المناسب والملائم للنصِّ القرآني.

إن النصَّ القرآني المعصوم يحتاج إلى قاعدة تُعطيه حقَّه ومستحقّه، ذلك بعد أن ظهرت مبتنيات وآراء قد خلطت ما بين الأصول والضوابط والأسس والقواعد التفسيرية، فلم نرَ فارقًا واضحًا وأساسًا بيِّنًا للتقعيد، ولم نرَ مائزًا ما بين القواعد التفسيرية والأصول والأسس التي خلط فيها الكثير ووقع فيها الأعم الأغلب، والإشكالية الفادحة أن من جاء بعدهم قلَّدهم تقليدًا أعمى ولم يُميِّز، بل نقل حتى النقطة والفارزة، علمًا أنه يدَّعي العلم والمعرفة!

* باحث من العراق.

إن من المهم دراسة قواعد التفسير، لكن وفق منهج علمي رصين من دون إفراط أو تفريط، فلا نريد أن نقول بأن قواعد التفسير هي (٣٧٠) قاعدة، فنخلط كل شاردة وواردة بها، ولا نريد -كذلك- أن نقول بأنها (٥) فقط، بل هي محدَّدة تحديدًا نابعًا من الحاجة الحقيقية لها.

إن في قواعد التفسير ما يجري في جميع المناهج والاتِّجاهات التفسيرية، ومنها ما يختصُّ بمنهجٍ واحدٍ أو اتجاهٍ واحد دون غيره، وهذا ما دعانا إلى الكتابة عن قواعد التفسير الموضوعي، وذلك لأهميته وشيوعه وكثرة الكتابة عنه، فقد تعدَّدت الأقوال والنظريات فيه. لذا سيكون بحثنا منصبًا على قواعد التفسير الموضوعي؛ لما لها من أهمية كبيرة في فهم وتفسير الآيات القرآنية وفق التفسير الموضوعي لها.

□ القواعد لغةً واصطلاحًا

أولًا: القواعد لغة واصطلاحًا

أ- القواعد لغة: قال ابن فارس (ت: ٣٩٥هـ): «قعد: القاف والعين والدال أصلٌ مطّردٌ منقاسٌ لا يُخلف، وهو يُضاهي الجُلوسَ... وامرأة قاعدةٌ، إن أرادت القعود، وقاعدٌ عن الحيض والأزواج، والجمع قواعد، قال الله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾... وقواعد البيت آساسُه. وقواعد الهَوْدَج: خشباتٌ أربع مُعترِضات في أسفله»[١].

وقال الراغب الأصفهاني (ت: ٤٢٥هـ): «قعد: القُعُودُ يُقابَلُ به القيامُ، والقَعْدَةُ للمَرَّةِ، والقِعْدَةُ للحال التي يكونُ عليها القاعدُ، والقُعُودُ قد يكون جمع قاعِدٍ... والقاعِدَةُ: لمنْ قَعَدَتْ عن الحَيْضِ والتَّزَوُّجِ»[٢].

وقال ابن منظور (ت: ٧١١هـ): «قعد: القُعُودُ: نقيض القيام. قَعَدَ يَقْعُدُ قُعودًا ومَقْعدًا أي جلس... والقاعِدَةُ: أصلُ الأُس، والقَواعِدُ: الأساسُ، وقواعِد البيت أساسُه... قال أبو عبيد: قواعد السحاب أصولها المعترضة في آفاق السماء شُبِّهت بقواعد البناء؛ قال ذلك في تفسير حديث النبي ﷺ حين سأل عن سحابة مَرَّت فقال: كيف تَرَوْنَ قواعِدَها وبواسِقَها؟ وقال ابن الأثير: أراد بالقواعد ما اعترض منها وسَفَل تشبيهًا بقواعد البناء»[٣].

---

(١) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ص ٨٦٤ - ٨٦٥.
(٢) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٦٧٨ - ٦٧٩.
(٣) ابن منظور الأفريقي، لسان العرب، ج٢، ص ٣٢٧٣ - ٣٢٧٤.

ب- **القواعد اصطلاحًا**: عرَّفها تاج الدين السبكي (ت: ٧٧١هـ) بقوله: «هي الأمر الكلي الذي ينطبق عليه جزئيات كثيرة، تفهم أحكامها منها»(٤). وقال الجرجاني (ت: ٨١٦هـ): «القاعدة: هي قضية كلية منطبقة على جميع جزئياتها»(٥). وقال الطريحي في مجمع البحرين (ت: ١٠٨٥هـ) عن تعريف القاعدة: «القاعدة في مصطلح أهل العلم: الضابطة، وهي الأمر الكلي المنطبق على جميع الجزئيات، كما يقال: كل إنسان حيوان، وكل ناطق إنسان»(٦).

ثانيًا: التفسير لغة واصطلاحًا

أ- **التفسير لغة**: قال ابن فارس: «فسر: الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدلُّ على بيان شيءٍ وإيضاحه. ومن ذلك الفَسْرُ، يقال: فَسَرْتُ الشيءَ وفسَّرتُه، والفَسْر والتَّفسِرَة: نظَر الطَّبيب إلى الماء وحُكمهُ فيه»(٧).

وقال الراغب الأصفهاني: «الفَسْرُ: إظْهَارُ المعنى المَعقول، ومنه قيل لِما يُنْبئُ عنه البَوْلُ: تَفْسِرةٌ، وسُمِّيَ بها قَارُورَةُ الماءِ، والتَّفْسِيرُ في المُبالغَة كالفَسْر، والتَّفْسِيرُ قد يقال فيما يخْتَصُّ بمُفْرَداتِ الألفاظ وغَرِيبها، وفيما يخْتَصُّ بالتأويل»(٨).

وقال ابن منظور: «الفَسْرُ: البيان. فَسَر الشيءَ يفسِرُه، بالكسر، ويَفْسُرُه، بالضم، فَسْرًا وفَسَّرَهُ: أبانه، والتَّفْسِيرُ مثله... الفَسْرُ: كشف المُغَطّى، والتفسير كَشف المُراد عن اللفظ المُشْكل... والفَسْر: نظر الطبيب إلى الماء، وكذلك التَّفْسِرةُ»(٩).

ب- **التفسير اصطلاحًا**: إن المراد بالتَّفْسيرُ: هو «توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة»(١٠). أو هو: «بيان أن موضوع معرفة ما متضمّن في حقائق مسلم بها أو في مبادئ ليس فقط مسلَّمًا بها بل هي -أيضًا- واضحة،

---

(٤) علي أحمد الندوي، القواعد الفقهية مفهومها، نشأتها، تطورها، دراسة مؤلفاتها، أدلتها، مهمتها، تطبيقاتها، دمشق سوريا: دار القلم، ط٤، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص٤١.

(٥) الشريف الجرجاني، التعريفات، مصدر سابق، ص ١٤٣.

(٦) فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين، تحقيق: أحمد الحسيني، طهران إيران: منشورات المكتبة المرتضوية، دون طبعة، دو تاريخ، ج٣، ص٥٣١.

(٧) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، ص ٨١٨.

(٨) الراغب الإصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٦٣٦.

(٩) ابن منظور الأفريقي، لسان العرب، مصدر سابق، ج٢، ص٣٠٣٣.

(١٠) الشريف الجرجاني، التعريفات، ص٥٠.

أي مستندة إلى أحكام ضرورية»[١١].

إذن فإن المراد من التفسير هو: «الشرح والبيان»[١٢]، أو «إخراج الشيء من مقام الخفاء إلى مقام التجلِّي»[١٣]، أو كشف الخفاء الحاصل في الألفاظ، أو إزالة الغموض عن الكلمات الصعبة، أو توجيه معانيها.

ثالثًا: تعريف قواعد التفسير

إن لقواعد التفسير عدَّة تعريفات تكثَّرت من جانب، ولربما تباينت نوعًا ما من جانب آخر؛ بحسب نوع وطبيعة الكتب المؤلّفة في ذلك. فقواعد التفسير هي: «الأحكام الكليةً التي يُتوصَّل بها إلى استنباط معاني القرآن العظيم ومعرفة كيفية الاستفادة منها»[١٤].

وهناك تعريفات أخرى قد تناولت (قواعد التفسير) ولم تخرج عن أساس التعريف المذكور إلَّا في تسمية تلك القواعد؛ فمنهم من اعتبرها ضوابط[١٥]، ومنهم من اعتبرها أمورًا[١٦]، ومنهم من قال عنها قوانين[١٧]، أو أصول أو أسس، وهكذا.

ويمكننا أن نُعرِّف قواعد التفسير بأنها: القواعد الموضوعة وفق أسس ومرتكزات وشروط خاصة، لتكون مساعدة في عملية تفسير القرآن الكريم.

□ أهمية قواعد التفسير

إن البحث عن تاريخ وأصول قواعد التفسير يُعَدُّ من أهم البحوث، وذلك لمدخليته في فهم القرآن الكريم، إذ إن للقرآن -وكما هو معلوم- أصول وقواعد ومناهج وضوابط، هي مهمَّة في تحصيل الفهم، لكن القوام التفسيري لا يستقيم من دون معرفة (قواعد التفسير)،

---

(١١) مراد وهبة، المعجم الفلسفي، القاهرة - مصر: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٨م، ص٢١٣.

(١٢) أحمد الزيات، المعجم الوسيط، مصدر سابق، ص ٦٨٨.

(١٣) أبو الفرج ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، بيروت - لبنان: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٢٩.

(١٤) أبو الفضل الحدوشي، نثر العبير في منظومة قواعد التفسير، (د. ت)، (د. ط)، ص٣٧، والسبت، خالد، قواعد التفسير جمعًا ودراسة، القاهرة - مصر: دار ابن عفان، ط١، ١٤٢١هـ، ص٣٠.

(١٥) انظر: أبو الفضل الحدوشي، نثر العبير في منظومة قواعد التفسير، مصدر سابق، ص ٤٢.

(١٦) انظر: مساعد الطيار، فصول في أصول التفسير، الرياض المملكة العربية السعودية: دار النشر الدولي للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٨٧.

(١٧) انظر: محمد علي الرضائي، منطق تفسير القرآن، مصدر سابق، ص٢١.

فلا بدّ إذن من معرفتها، إذ من دون رعاية الأصول والقواعد اللازمة ينتهي تفسير القرآن إلى التفسير بالرأي المذموم، والانحراف عن المبادئ، وإلى القول في القرآن بما لا يرتضي به الله ورسولهُ، فلا بدّ من تأسيس علم يتكفّل بتبيين قواعد التفسير وضوابطه(١٨).

إن القواعد التفسيرية تساعد على فهم القرآن الكريم، ذلك أن فائدة التقعيد هي ضبط النظام العام للعلم، وتقعيده؛ أي وضع قواعد وركائز يرتكز عليها، فهي بذلك علوم آلية وأدوات مساعدة على الفهم، تحتل منزلة الطريقية وليس الموضوعية.

إن لقواعد التفسير أهمية في تفسير القرآن الكريم، وفي استكشاف مراد الوحي من أجل هداية البشر وإرشادهم لجادة الصواب(١٩)، وهذا الكلام هو في فائدة وغاية قواعد التفسير الحقيقية بشرطها وشروطها.

وعن أهمية قواعد التفسير يقول محمد فاكر الميبدي: «إننا نحتاج في فهم مفاد كلامه سبحانه وفي تفسيره إلى القواعد والأصول التي بها نصون آيات التنزيل من الأخذ بالرأي الممقوت، ونصدُّ بها كل انحراف عن المبادئ السماوية التي جاء بها القرآن الكريم، وهذا يُحتّم علينا أن نضع قواعد بها تُيسّر سُبُل التفسير المؤدِّية إلى مرضاة الله ورسوله. وأيضًا أن قواعد التفسير بمنزلة الميزان والقانون الذي به يفسّر القرآن الكريم. وهذا كافٍ في شرف هذا البحث ومكانته»(٢٠).

إن قواعد التفسير -وكما تقدَّم- تُمثِّل (القانون) الذي يستفيد منه المفسِّر في تفسيره للقرآن الكريم.

وعن أهمية قواعد التفسير كذلك يقول محمد علي الرضائي: «إن قواعد التفسير تُوضِّح القوانين الأساسية للتفسير ضمن إطار معيَّن، وإن عدم مراعاتها تجعل عملية التفسير لا طائل منها، فلا يتمكَّن مفسِّر القرآن من فهم النص بصورة صحيحة، ولا يستطيع أن يُدرك بشكل سليم معاني الآيات ومقاصد الله تعالى»(٢١).

بذلك يتوضَّح جليًّا أهمية قواعد التفسير، وندرك أن الغفلة عنها، أو عدم العمل بها سيتسبَّب بالخطأ والوقوع في براثن الاختلاف، وفي براثن التفسير الخاطئ للقرآن الكريم.

(١٨) انظر: محمد فاكر الميبدي، قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة، طهران - إيران: مركز التحقيقات والدراسات العلمية التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، ط١، ١٤٢٨هـ، ص٨.

(١٩) محمد محمد السند، تفسير أمومة الولاية والمحكمات للقرآن الكريم، تقرير: محسن الجصاني، قم - إيران: مطبعة شريعت، ط١، ١٤٣٤هـ، ج١، ص٢١-٢٢.

(٢٠) محمد فاكر الميبدي، قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة، مصدر سابق، ص١٥.

(٢١) محمد علي الرضائي، منطق تفسير القرآن، مصدر سابق، ص٢٠٩.

إن قواعد التفسير عِلم مهمٌّ، لا بدّ من إعطائه مكانته الحقيقية والصحيحة، وهو يتلاءم مع أساسيات العقل، وعمومات النصوص في التوقِّي والوقاية، والتحرُّز والمحافظة على الكيان العلمي الرصين.

□ قواعد التفسير الموضوعي

أولًا: التفسير الموضوعي وقواعد التفسير الموضوعي

أ- التفسير الموضوعي

إن التفسير الموضوعي هو: «تفسير القرآن حسب الموضوعات الواردة، بمعنى جمع الآيات الواردة في سور مختلفة حول موضوع واحد ثم تفسيرها جميعًا والخروج بنتيجة»[٢٢].

إن التفسير هو كشف الخفاء عن الألفاظ، أو هو الكشف مطلقًا، أما الموضوع فهو الأمر المقصود، المعنون بعنوان معيَّن، وعنوانه أبرز من محتواه، يحتوي على مرادات معيَّنة.

من الذين أسسوا لنظرية التفسير الموضوعي هو الأستاذ أمين الخولي (ت: ١٣٨٥هـ)، إذ يرى: «أن يُفسَّر القرآن موضوعًا موضوعًا وأن تُجمع آياته الخاصة بالموضوع الواحد جمعًا إحصائيًّا مستفيضًا، ويُعرف بترتيبها الزمني ومناسبتها وملابستها الحافَّة بها، ثم يُنظر فيما بعد لتُفسَّر وتُفهم، فيكون بذلك التفسير أهدى إلى المعنى، وأوثق في تحديده»[٢٣].

بهذا يكون أمين الخولي هو أول من كتب عن التفسير الموضوعي إسلاميًّا في العصر الحديث.

إننا هنا لن نبحث عن تاريخ التفسير الموضوعي، ولا عن أول من نظَّر له، أو أول من ألَّف فيه، بل إن المراد هنا هو توضيح ما يراد بـ(التفسير الموضوعي) كمدخل توضيحي لمعرفة (قواعد التفسير الموضوعي) مدار بحثنا هنا.

يقول السيد محمد باقر الصدر في تعريف التفسير الموضوعي: «اصطلاح الموضوعية هنا، بمعنى أنه يبدأ من الموضوع الواقع الخارجي من الشيء الخارجي ويعود إلى القرآن الكريم»[٢٤]، ويضيف قائلًا: «إنما الدراسة الموضوعية هي التي تطرح موضوعًا من

---

(٢٢) جعفر السبحاني، مفاهيم القرآن، مصدر سابق، ج١، ص٨.

(٢٣) أمين الخولي، دائرة المعارف الاسلامية، مادة التفسير، ترجمة: عبد الحميد يونس وجماعته، أوفست، د. ط، ١٩٣٣م، ج٥، ص٣٦٨. مأخوذ من كتاب لأمين الخولي عنوانه: التفسير: نشأته، تدرُّجه، تطوُّره.

(٢٤) محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، بيروت - لبنان: التعارف للمطبوعات، ط٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م،

موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، وتتَّجه إلى درسه وتقييمه من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده»[٢٥].

ويقول الشيخ جعفر السبحاني عن التفسير الموضوعي: هو: «تفسير القرآن حسب الموضوعات الواردة، بمعنى جمع الآيات الواردة في سور مختلفة حول موضوع واحد ثم تفسيرها جميعًا والخروج بنتيجة»[٢٦].

بذلك يتوضَّح المراد بـ(التفسير الموضوعي) ليكون الطريق واضحًا أمام بيان المراد بقواعد التفسير الموضوعي.

وهنا ملاحظة مهمَّة يُشير إليها الدكتور حكمت عبيد الخفاجي بقوله: «لا بدّ لنا أن نُشير إلى أن الموضوعية شيء، وما نقصده بالتفسير الموضوعي شيء آخر، فالموضوعية تعني الآداب المرعيَّة لتفسير القرآن الكريم، وهي شرط أساس وليس شرطًا احترازيًّا، أساسي لتلقِّي معاني القرآن كما أرادها الله، وهو احترازي من النزوع إلى الهوى والتعرُّض لشطحات الميول، فالمتلقِّي للتفسير يريد معرفة هذا النص على حقيقته، والغوص إلى أعماقه، والمفسِّر الحقّ هو الباحث الذي يُنفِّذ هذه الرغبة، وينهض بهذه المهمَّة، متطلِّعًا إلى الأسرار ناصعة أنيقة»[٢٧].

إذا لا بد من التفريق ما بين (الموضوعية) عمومًا، والموضوعية خصوصًا، فالموضوعية تتَّبع العلم الذي تتَّحد به، لذلك فإن الدراسة الموضوعية إذا ارتبطت بالقرآن الكريم فإنها تعني (التفسير الموضوعي).

ب- قواعد التفسير الموضوعي

إن قواعد التفسير الموضوعي هي: «تلك القوانين الكلِّيَّة التي تقع واسطة في الاستنباط، ولكنها هنا لا تختصُّ بآية أو سورة خاصة من القرآن الكريم، وإنما تختصُّ بمجموع الآيات المصنَّفة حول الموضوع الواحد في القرآن الكريم»[٢٨].

ص٢٣.

(٢٥) محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، مصدر سابق، ص٢٤.

(٢٦) جعفر السبحاني، مفاهيم القرآن، قم - إيران: مؤسسة الإمام الصادق، ط١، ١٤٣٠هـ، ج١، ص٨.

(٢٧) حكمت الخفاجي، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم وموضوعاته، الحلة - العراق: مؤسسة دار الصادق الثقافية، ط١، ١٤٣٤هـ، ص٢٥.

(٢٨) مازن شاكر التميمي، أصول وقواعد التفسير الموضوعي للقرآن، كربلاء - العراق: العتبة الحسينية المقدَّسة، ط١، ١٤٣٦هـ، ص٢٥٧.

فقواعد التفسير الموضوعي هي التي تساعد في عملية التفسير، لكن وفق منهج التفسير الموضوعي، ووفق منهج صفّ وجمع الآيات ضمن موضوع واحد معيَّن، وهكذا الحال في الموضوعات الأخرى.

ثانيًا: أهمية قواعد التفسير الموضوعي

لقد شكَّل التنوُّع في مناهج واتِّجاهات التفسير نقطة إيجابية من جانب، وسلبية من جانب آخر؛ إذ قد سبَّب اختلاف المفسِّرين في بيان مفاهيم الآيات القرآنية ومراد الله تعالى منها، وهذا قد سبَّب اختلافًا في التطبيقات العقائدية والفقهية والسلوكية، وقد فتح ويفتح الأبواب أمام الجهلة والمتطفِّلين والمتصيِّدين والأعداء ليُفسِّروا القرآن وفق ما يشتهون وما يريدون، لذا كان من الضروري إيجاد حلٍّ يُغلق الأبواب في وجه هؤلاء، ويقوّم العملية التفسيرية، فيُصحِّح الأخطاء والاشتباهات، ويجمع الآراء في رأي واحد، وبالخصوص في القضايا المسلَّمة على أقلِّ تقدير.

من هنا تتأتَّى أهمية قواعد التفسير عمومًا، وقواعد التفسير الموضوعي بشكلٍ خاص، فهي تعمل على إيجاد ضمانة تُبعد المفسِّر عن التفسير بالرأي، وعن تقليد مفسِّرين آخَرين، إذ إنه ومع عدم وجود القواعد التفسيرية ستكون مساحة تفسير المفسِّر برأيه أو تقليد غيره أكثر ممَّا لو كانت هناك قواعد موضوعية، وعليه يكون وجود القواعد ضرورة عقلية في التفسير؛ لأنها شرط أساس من شروط التفسير الصحيح للقرآن الكريم.

يقول الأستاذ عبد الستار فتح الله سعيد: «إن جمع الآيات موضوعيًّا، وتحديد دلالات الألفاظ القرآنية من خلال النظرة الكلية الجامعة، يُؤدِّي إلى تصحيح كثير من القواعد، والقوانين، والأحكام الكلية، التي قال بها أصحاب الفنون العلمية المختلفة، في الدراسات الدينية واللغوية جميعًا. ذلك لأننا حين ننظر إلى كثير منها نجدها قائمة على غير استقراء كلي، أو إحصاء واستيعاب شامل، ولو رجع واضعوها إلى التفسير الموضوعي لصحَّحوها بأنفسهم، ولحسمت مادة الخلاف بين العلماء في كثير من القضايا»[٢٩].

إن أهمية قواعد التفسير الموضوعي تأكَّدت لعدَّة أسباب منها: لأن هناك تفسيرًا موضوعيًّا يحتاج إلى قواعد تفسيرية من أجله، ولأن التخصُّص هنا مهم، وهو يختصر الطريق من جانب، ويمنع اختلاط العلوم من جانب آخر، وبسبب التوسُّع في مجال التفسير الموضوعي ليصبح له كيانه وأُسسه وقواعده الخاصة به.

---

(٢٩) عبد الستار فتح الله سعيد، المدخل إلى التفسير الموضوعي، بورسعيد: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط٢، ١٤١١هـ، ص٥٣-٥٤.

ثالثًا: تقسيمات قواعد التفسير الموضوعي

أ- القواعد المشتركة

ويعنى بها القواعد المشتركة ما بين التفسير الموضوعي والتفسير التجزيئي، وهي: كقاعدة تفسير الآيات القرآنية على أساس الأسلوب التفسيري الصحيح، ولزوم رعاية أصول المحاورات العرفية والعقلائية في تفسيرها، وقاعدة الجري والتطبيق، وقاعدة حرمة التفسير بالرأي.

ب- القواعد الخاصة

وهي القواعد الخاصة بالتفسير الموضوعي فقط، كقاعدة الالتزام التام بعناصر القرآن في مرحلة تحديد الموضوع، وقاعدة مراعاة خصائص القرآن الكريم، وقاعدة وجوب عدم الاكتفاء بجمع الآيات المشتملة على ألفاظ الموضوع فقط، وقاعدة ضرورة الفهم التحليلي للآيات، وقاعدة رعاية ما يلزم في تفسير القرآن بالقرآن، وقاعدة لزوم العناية بالتفسير التجزيئي، وقاعدة لزوم رعاية الأسلوب الصحيح في التفسير الموضوعي، وقاعدة التدقيق التام قبل التقعيد والتأصيل.

□ تطبيقات إجرائية في قواعد التفسير الموضوعي

أولًا: تطبيق قواعد التفسير الموضوعي المشتركة مع التفسير التجزيئي

القاعدة: حرمة التفسير بالرأي

المعنى العام للقاعدة: أن من يُفسِّر القرآن الكريم برأيه، ومن عنده، من دون أي دليل شرعي حقيقي يُقِرُّ به العقل مع العقل السليم فهو مرفوض، بل محرَّم حرمة مطلقة، ولقد أراد البعض أن يصبغه بصبغة أكثر قبولًا كتسميته بالاجتهاد وما شاكل، علمًا أن الاجتهاد يفترق عن القول بالرأي، والاجتهاد لا يكون قبال النص وبالخصوص النص المحكم، ومن ثَمَّ فإن تفسير القرآن بالرأي محرَّم، وهذه قاعدة مشتركة ما بين التفسير التجزيئي والتفسير الموضوعي، بل قاعدة أساسية في كل أنواع ومناهج واتِّجاهات التفسير لا يُعرِض عنها إلَّا من شذَّ قولًا ومذهبًا ومنهجًا.

معنى الرأي لغة واصطلاحًا

الرأي في اللغة: قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: الرأي: «رأي القلب، ويجمع على

الآراء»[٣٠]. والرأي: «أصل يدل على نظر وإبصار بعين أو بصيرة. فالرأي: ما يراه الإنسان في الأمر، وجمعه الآراء»[٣١].

الرأي في الاصطلاح: «إن معنى التفسير بالرأي: الاستقلال في الفتوى من غير مراجعة الأئمة مع أنهم قُرناء الكتاب في وجوب التمسُّك به ولزوم الانتهاء إليهم»[٣٢].

بعض تطبيقات القاعدة

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣٣].

لقد فسَّر الزمخشري هذه الآية بالرأي المستند إلى ما مال إليه من أقوال العرب التي اختارها هو بذاته من دون أي مرجّح يُذكر. وقد فسَّر (اليوم) بأنه لم يرد به يومًا بعينه، وإنما أراد به الزمان الحاضر وما يتَّصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية، كقولك: كنت بالأمس شابًّا وأنت اليوم أشيب، فلا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك ولا باليوم يومك.

وقد فسَّر ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بأن المراد به: كفيتكم أمر عدوّكم، وجعلت اليد العليا لكم، كما تقول الملوك: اليوم كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد، إذا كُفوا من ينازعهم الملك ووصلوا إلى أغراضهم. أو أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفكم من تعليم الحلال والحرام والتوقيف على الشرائع وقوانين القياس وأصول الاجتهاد.

كما وقد فسّر قوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين، وهدم منار الجاهلية ومناسكهم وإن من لم يحجَّ معكم مشرك، ومن لم يطف بالبيت عريانًا. أو أتممت نعمتي عليكم بإكمال أمر الدين والشرائع، كأنه قال: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي بذلك، لأنه لا نعمة أتمّ من نعمة الإسلام[٣٤].

إن هذا الرأي التفسيري من قبل الزمخشري لا يستند إلى دليل، وذلك لأنه قد استند إلى كلام العرب وقولهم، وهو ليس بحجَّة في تعيين المراد الإلهي، بل هو مساعد فيه، كما أن النصوص المتواترة عن أهل البيت عليهم السلام دلَّت خلاف ذلك، إذ أكَّدت أن اليوم هو يوم الغدير، وأن النعمة هي نعمة الولاية والإمامة، وأن بالإمامة أكمل الله تعالى الإسلام، ولا

(٣٠) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، مصدر سابق، ج٨، ص٣٠٦.
(٣١) أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، ص ٤١٥.
(٣٢) أبو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ص٢٨٧.
(٣٣) سورة المائدة، الآية ٣.
(٣٤) جار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، مصدر سابق، ج١، ص٦٠٤ – ٦٠٥.

يرضى تعالى للمسلمين غير الإسلام دينًا، ولا يتمُّ ذلك إلَّا مع الاعتقاد بولاية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وإمامة الأئمة المعصومين من ولده عليهم السلام[٣٥].

النتيجة: لقد دلَّت النصوص الحديثية الكثيرة على حرمة القول بالرأي، والإفتاء بالرأي، والتفسير بالرأي، وهو محرَّم، إلَّا أن البعض قد وضع لـ(مقولة الرأي) مستندًا شرعيًّا لا أساس له، ولا يصمد أمام النقد.

ثانيًا: تطبيق عن قواعد التفسير الموضوعي الخاصة بالتفسير الموضوعي

القاعدة: الالتزام التام بعناصر القرآن في مرحلة تحديد الموضوع

هذه القاعدة هي من القواعد الخاصة بقواعد التفسير الموضوعي، ومن اللازم توضيحها بالشكل الذي يضمن فهمها للقارئ والدارس والمختص.

المعنى العام للقاعدة

أي إن فهم المراد من هذه القاعدة يتوقَّف على فهم المراد بـ(العنصر) فيها، من خلال الالتزام بعناصر القرآن الكريم، إذ إن لها دورًا كبيرًا في تحديد وفهم الموضوع.

معنى العنصر لغة واصطلاحًا

العنصر لغة: قال الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ): العنصر هو: «أصل الحسب، جاء عن الفصحاء مضموم العين منصوب الصاد، ولا يجيء في كلامهم من الرباعي المنبسط على بناء فعلل إلَّا ما يكون ثانيه نونًا أو همزة نحو: الجندب والجؤذر، وجاء السؤدد كذلك كراهية أن يقولوا سودد فتلتقي الضمات مع الواو»[٣٦]. وفي لسان العرب: «العُنْصُر والعُنْصَر: الأصل...»[٣٧].

أما العنصر اصطلاحًا: «ما يفتقر إليه الموضوع في تكوينه، وتتكوَّن منه الموضوعات المختلفة بذاتها أو بطبعها، وقد يكون هذا التكوين وهذا التشكُّل من عنصر واحد أو أكثر من ذلك»[٣٨].

---

(٣٥) انظر: علي أكبر المازندراني، دروس تمهيدية في القواعد التفسيرية، مصدر سابق، ج١، ص٢٤٩.
(٣٦) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، مصدر سابق، ج٢، ص٣٣٧.
(٣٧) ابن منظور الأفريقي، لسان العرب، مصدر سابق، ج٤، ص٦١١.
(٣٨) مازن شاكر التميمي، أصول وقواعد التفسير الموضوعي للقرآن، مصدر سابق، ص٢٩١-٢٩٢.

بعض تطبيقات القاعدة

قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(٣٩). وقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(٤٠). وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٤١). وقال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(٤٢).

إن الآيات القرآنية المتقدِّمة متعلِّقة بالالتزام بعناصر النظرية القرآنية القائلة: (لزوم أن يبدأ كل عمل باسم الله تعالى). وبيانه: لقد علّمنا القرآن الكريم في بداية كل سورة أن نبدأ عملنا بـ(بسم اللَّه الرحمن الرحيم)، وأن نُعطر أسماعنا وقلوبنا وأرواحنا بهذا الذِّكر الشريف؛ لأنه يُنوِّر القلب ويهب الروح الصفاء والقوة والنشاط، وبدء الأعمال بهذه الروح يوصل إلى الغاية المرجوة، فهذا خُلق قرآني، وعنصر قرآني مهم، كون القرآن الكريم هو القدوة، وهو كلام الله سبحانه وتعالى.

في الآية الأولى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ والتي تصدرت كل سور القرآن الكريم (ما عدا سورة براءة) يُعلِّم الباري تبارك وتعالى الإنسان أن يبدأ عمله بـ(بسم اللَّه الرحمن الرحيم)، ويستعين به في أداء أعماله وتنفيذ خططه.

أما في الآية الثانية فهو كلام عن خطاب جبرائيل الأمين عليه السلام في بداية البعثة للنبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم في دلالة على التكليف الإلهي بالنبوة، والتبليغ، والهداية الإلهية، من خلال دستور، ولا بدّ للدستور من بداية وديباجة، وبدايته هي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

وفي الآية الثالثة بيان لقصة نبي الله نوح عليه السلام وذلك عندما حلَّت لحظة الطوفان، ولحظة انطلاق سفينة نوح في عباب ذلك الطوفان الهائج والمُدمِّر، فكانت بداية الأمر الإلهي هو: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾.

أما في الآية الرابعة والأخيرة يتوضَّح كلام في كتاب من النبي سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ بعد أن أخبره الهُدهُد عن قومها وعبادتهم للأصنام.

فهذه جملة من تطبيقات هذه القاعدة، وهي أمثلة لكيفية تطبيقها، أو كدرس مهم ومثال مفيد في كيفية ذلك ليستفاد منه من قبل الأستاذ والتلميذ، بل ومن قبل الباحث،

(٣٩) سورة الحمد، الآية ١.
(٤٠) سورة العلق، الآية ١.
(٤١) سورة هود، الآية ٤١.
(٤٢) سورة النمل، الآيات ٢٩-٣١.

ذلك أن المثال يُعَدُّ أفضل الطرق لحفظ القواعد والنظريات، وإن علينا أن نُكثر من ذكر الأمثلة، وبالخصوص في القواعد التفسيرية، وفي تفسير القرآن الكريم.

من مجموع ما تقدَّم تظهر نتيجة مهمَّة هي: إن الأعمال مهما كان نوعها وجهة صدورها، سواء كانت من الله سبحانه وتعالى، أو من الخلق، أو من جبرائيل عليه السلام، أو من الأنبياء عليهم السلام، فإنه من اللازم أن تبدأ بـ(بسم الله)، في توضيح وبيان مدى الارتباط به تعالى، واستمداد القوة والمنعة والنصر منه تعالى، وطلب التوفيق والتسديد والمباركة منه تعالى.